معالي الدكتور أحمد أبو الغيط(*)

فضيلةَ الإمامِ الأكبرِ أحمد الطَّيِّب، شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ، قداسةَ البابا تواضروس الثَّاني، بابا الإسكندريَّةِ وبطريركِ الكرازةِ المرقسيَّةِ.

الحضورُ الكريمُ. ملخص كلمة معالي الدكتور أحمد أبو الغيط

كلُّكم قاماتٌ ينبغي أن يذكرَها الإنسانُ اسمًا اسمًا.

اسمحوا لي في البدايةِ أن أتقدَّمَ بالشُّكرِ للأزهرِ الشَّريفِ وشيخِه الجليلِ، وإلى مجلسِ حكماءِ المسلمينَ، على تقديم الدَّعوةِ لي للمشاركةِ في هذا المحفلِ المهمِّ، وبالجهدِ الضَّخمِ الَّذي يبذلُه الأزهرُ الشَّريفُ تحت قيادةِ فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ، بهدفِ دسِّ قوَّةِ التَّواصلِ الضَّخمةِ، والَّتي تتسِمُّ بها جماعاتُنا اليومَ.

الأرضُ الَّتي يعيش عليها العربُ اليومَ هي ذاتُها الَّتي شَهِدتْ بزوغَ نورِ الوحيِ الرَّبَّانيِّ، وتلقِّي رسالةِ السَّماءِ منذ آلافِ السِّنينَ، عاش النَّاسُ في رُبوعِها معهم هذا الرِّباطُ الإلهيُّ، وحمَلُوا الرِّسالةَ إلى الدُّنيا كلِّها شرقًا وغربًا، وكانوا سِراجًا مُنيرًا للعالَمِينَ، وظلَّت هذه الأرضُ الطَّيِّبةُ حاملةً لبذورِ الإيمانِ، حافظةً لقِيَمِ الأديانِ.

عاش بها أبناءُ إبراهيمَ تُوحِّدُهم كلمةُ المحبَّةِ والإخاءِ الإنسانيِّ، لا أقولُ لأنَّ الأمورَ كانت دومًا ورديَّةً، أو العَلاقاتِ بين أصحابِ الدِّياناتِ المختلفةِ كان طابعُها الوِئامَ على طولِ الخَطِّ؛ فالدِّينُ هو كلمةٌ ربَّانيَّةٌ يفهمُها البَشَرُ ويعمل بها البَشَرُ، والبَشَرُ بطبيعتِهم مزيجٌ من الحِكمةِ –وللأسفِ– من الحماقةِ.

وكما شهدتْ أرضُنا عقودًا من التَّعايشِ والوئامِ، فإنَّها لم تَخْلُ من رياحِ التَّعصُّبِ والكراهيةِ، وفي تَجرِبتِنا التَّاريخيَّةِ خليطٌ من هذا وذاك، فهناك العالمُ النَّموذجيُّ الَّذي شَهِدَ ذروةَ التَّسامحِ والتَّعايشِ، وهناك أيضًا عالمُ الحروبِ الصَّليبيَّةِ، وهو ذروةُ التَّعصُّبِ والانغلاقِ على الأقلِّ من جانبِ الغربِ، وتجرِبتُنا التَّاريخيَّةُ على هذه الأرضِ تجمعُ هذا كلَّه في تجرِبةٍ غنيَّةٍ، قد لا يكون لها مثيلٌ أو نظيرٌ في أيِّ مكانٍ في العالمَِ.

للأسفِ.. إننا نعيش في حِقبةٍ من حِقَبِ التَّعصُّبِ، بُلينا فيها بمن استخدَموا خطأً كلمةَ الخالقِ سيفًا على رقابِ الآمِنِينَ، وبمنِ انحرَفوا عن كلامِه عزَّ وجلَّ؛ ليصِيرُوا قتلةً عنوانُهم سفكُ الدَّمِ، إنَّها حِقبةٌ من حِقَبِ الانغلاقِ، الَّتي طالمَا بُلِيَتْ بها المِنْطقةُ في عقودٍ سابقةٍ من تاريخِها، وشَهِدَ العالمُ العربيُّ في السَّنواتِ الأخيرةِ ظاهرةً تدعو للأَسى، وباعثةً على الحزنِ الشَّديدِ، إذ تمكَّنتِ التَّياراتُ المتطرِّفةُ من التَّغلغُلِ في المجالِ العامِّ، ولعبِ دَورٍ بالغِ الخطورةِ في تشتيتِ الوعيِ والإدراكِ، وكان نتيجةُ ذلك أن تعرَّضَ مفهوما المُواطَنةِ والعيشِ المُشتَركِ إلى التَّراجعِ والتَّآكلِ.

إنَّ الدولةَ الوطنيَّةَ المعاصرةَ هي دولةٌ لكلِّ مواطنِيها، دولةٌ تسمحُ أن تتعايشَ أديانٌ وأعراقٌ وطوائفُ مختلفةٌ جنبًا إلى جنبٍ في ظلِّ سيادةِ حُكمِ القانونِ، وبدون جَورِ جماعةٍ على أخرى، لا فرقَ بين أغلبيةٍ وأقلِّيَّةٍ، ولا تمييزَ بين دِينٍ ودِينٍ، ذلك أنَّ القانونَ دستورُ هذه الدَّولةِ، والتَّسامحَ عِمادُها.

والحقُّ أنَّ التَّسامحَ الدِّينيَّ هو أحدُ المبادئِ المؤسِّسةِ لدولةِ المُواطَنةِ، والتَّسامحُ في المجتمعاتِ ليس صفةً محمودةً أو فضيلةً مطلوبةً كما هو في البَشَرِ، وإنَّما هو منظومةٌ متكاملةٌ.. فكريَّةٌ وسياسيَّةٌ وقانونيَّةٌ.. هذه المنظومةُ تترسَّخُ في ضميرِ المجتمعِ حتَّى يتشرَّبَها أبناؤُه، وتصبحَ جزءًا من وَعيِهم العامِّ، وتدخلَ في نسيجِ المؤسَّساتِ والهياكلِ ومناهجِ التَّعليمِ ووسائلِ الإعلامِ؛ لتصيرَ نهجًا ثابتًا وطبعًا مستقرًّا.

السِّيداتُ والسَّادةُ!

إنَّ المُواطَنةَ تتأسَّسُ على التَّسامحِ، والتَّسامحُ في أبسطِ معانيهِ هو القَبولُ بالآخَرِ المُختلِفِ، كما هو ذلك الَّذي نريدُه أن يكونَ، بحقِّه في الاختلافِ وبحقوقِهِ المتساويةِ في العَيشِ، وبشَراكتِه الكاملةِ في الوطنِ، وثقافةُ التَّسامحِ تُكتَسبُ وتُمارَسُ ولا يُولَدُ النَّاسُ بها.

ونجزمُ أنَّ الأغلبيَّةَ في بلادِنا العربيَّةِ تفترضُ أن لا حاجةَ بها لأن تعرفَ شيئًا عن الآخَرِ المختَلِفِ عنها في الدِّينِ، الشَّريكِ لها في الوطنِ.. وهكذا يبقى أبناؤُنا متجاورِينَ في السَّكَنِ ومقاعدِ الدَّرسِ في المدرسةِ، متباعِدِينَ كلَّ البُعدِ فيما يخصُّ الرُّوحانيَّاتِ.. لا يعرف أصحابُ دِينٍ عن الدِّينِ الآخَرِ سوى أقلِّ القليلِ.. وهذا هو أوَّلُ طريقِ التَّطرُّفِ.

إنَّ السِّلاحَ الأوَّلَ للمتطرِّفِينَ هو نَشرُ رُوحِ البغضاءِ بين الأديانِ المختلفةِ.. إنَّهم يمارسون فقهَ «تكريهِ» النَّاسِ في بعضِهم البعض، وما من شكٍّ في أنَّ مَهمَّتَهم هذه

تصيرُ أسهلَ كثيرًا إن كان أصحابُ هذه الدِّياناتِ متباعِدينَ حقًّا في ثقافتِهم وأفكارِهم، ولا يعرفون عن الأديانِ الأخرىٰ سوىٰ القشورِ.

مطلوبٌ من المنابرِ والكِياناتِ الدِّينيَّةِ أن تمارسَ دَورًا تنويريًّا؛ لكي لا ينشأَ أبناؤُنا في عوالِمَ معزولةٍ عن بعضِهم البعض؛ فيصيروا أكثرَ عُرضةً للأفكارِ المدسوسةِ، والقِيَمِ المغلوطةِ، والكراهيةِ الفكريَّةِ الَّتي تُمزِّقُ نسيجَ المجتمعاتِ، وتهدمُ مودَّتَها وتَماسُكَها.

نتمنىٰ علىٰ المؤسَّساتِ الدِّينيَّةِ أن تُربِّيَ النَّشءَ علىٰ أن يعرفَ الآخَرَ المختلِفَ عنه أوَّلًا، وأن يقبلَ بالاختلافِ معه ثانيًا، وأن يُقِرَّ بحقوقِهِ المتساويةِ في العيشِ المشتَرَكِ ثالثًا.

السَّادةُ الحضورُ!

من الظَّواهرِ المُقلِقةِ في واقعِنا العربيِّ المعاصرِ: أنَّ جماعاتِ اليأسِ والظَّلامِ، وأئمَّةَ فكرِ الكُرهِ والعنفِ، تمكَّنوا -وللأسفِ الشَّديدِ- من تخويفِ النَّاسِ، وبثِّ بذورِ الفتنةِ بينهم، فشاهَدْنا مَسيحيِّي المشرقِ وهم يتعرَّضونَ لخطَّةٍ ممنهجةٍ تَهدِفُ لإفراغِ بلادِنا منهم، وهم جزءٌ لا يَتجزَّأُ من نسيجِها.

إنَّ إسهامَ المسيحيِّينَ في الحضارةِ العربيَّةِ لا يُنكِرُه إلا جاحدٌ، وجهودَهم الوطنيَّةَ في أوطانِهم مقدَّرةٌ ومعتبَرةٌ، بل إنَّ منهم من لَعِبَ دورًا رائدًا في الدَّعوةِ والتَّرويجِ للفكرةِ العربيَّةِ ذاتِها، في النِّصفِ الأوَّلِ من القرنِ العشرينَ.

إنَّني على اقتناعٍ تامٍّ أنَّ الشَّرقَ الأوسطَ يزدخرُ بالتَّنوُّعِ، ويموتُ ويَذوي إذا فقدنا هذا التَّعدُدَ، وإذا نظَرْنا حولَنا في العالمِ، سنجدُ أنَّ المجتمعاتِ النَّاجحةَ هي الَّتي تتعدَّدُ فيها المعتقداتُ والثَّقافاتُ؛ لأنَّها بالضَّرورةِ أكثرُ غِنًى بالأفكارِ المختَلِفةِ، وتقومُ دومًا بتيَّاراتٍ متباينةٍ، وهو ما ينعكسُ بدورِه على رُوحِ المجتمعِ، بل وعلى حركتِهِ العامَّةِ؛ منِ اقتصادٍ وتجارةٍ وسياسةٍ.. العصرُ الَّذي نعيشُ فيه هو عصرُ التَّعدديَّةِ بعد أن ولَّى زمنُ الفكرةِ الواحدةِ والرَّأيِ الواحدِ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ!

علينا أن نَسلُكَ الطَّريقَ الصعبَ.. طريقَ الحفاظِ على التَّنوُّعِ والتَّعددِ، لا التَّفريطِ فيه أو التَّنازلِ عنه.. أن نُدرِّبَ مجتمعاتِنا على ثقافةِ التَّسامحِ والتَّنازلاتِ المتبادلةِ؛ إعلاءً لقيمةِ العَيشِ المُشترَكِ.. علينا أن نُعزِّزَ الثَّقافةَ الوطنيَّةَ الجامعةَ الَّتي ينخرطُ الجميعُ في إطارِها، فتصيرَ عُنوانًا لانتماءِ أبناءِ الوطنِ كافَّةً، ومَناطًا أعلى لولائِهم ومحبَّتِهم.

ويَقيني أنَّ ما تَشهَدُه مجتمعاتُنا من ظواهرَ قبيحةٍ لا تُعبِّرُ حقًّا عن واقِعِها الفذِّ، ولا عن ثقافتِها الأصيلةِ المُتوارَثةِ الَّتي أعطتْ للعالَمِ كلِّه نماذجَ مميَّزةً في الازدهارِ الحضاريِّ القائمِ على التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ واستيعابِ الثَّقافاتِ والأديانِ.

أتمنَّى كلَّ النَّجاحِ لمؤتمرِكم المُهِمِّ، وفَّقَنا اللهُ وإياكم لِما فيه الخيرُ والنَّفعُ.

شكرًا لكم.